ظَاهِرَةُ إِتْلاَفِ الكُتُبِ فِي التَّارِيخِ الإِسْلاَمِيِّ
(مَدْخَلٌ لِدِرَاسَةِ الظَّاهِرَة)

The phenomenon of book destruction in Islamic history
(An introduction to the study of the phenomenon)

د. ساعد غلاب[1]

1المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة – الجزائر ghellab.saad@ensb.dz

تاريخ الاستلام: 2022/2/13 تاريخ القبول: 2022/6/4 تاريخ النشر: 2022/6/9

ملخص:

عندما يجري ذكر الكتاب لا يكاد يحضر في الذهن إلا ذلك الجليس في وقت الغربة، والأنيس في وقت الوحشة، الذي تحمله براحتيك، وتنظر إليه بمقلتيك، وتقلب صفحاته بأناملك، وتقرأ ما فيه من علم بقلبك ولسانك، فتراه يعرض عليك من العلوم أنواعا، ومن الفنون أفنانا، فمرة يكون مفسرا ومحدثا وفقيها، وكرة مؤرخا وراويا، ومرة أديبا وشاعرا، وأخرى واعظا ومذكرا...

أتت على الكتاب نوائب الزمان ومصائبه، فنالته بنصيب وافر من الإتلاف بالحرق مرة وبالدفن كرة وبالإغراق أخرى ... في وقائع محزنة ومخزية...

في هذه الدراسة مدخل لموضوع ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي، نتعرف من خلاله على أهمية معرفة الظاهرة وأنواعها، وطُرُقها، وأسبابها، والمؤلفات فيها، ومناهج العلماء في تناولها وعرضها؛ وقد جاء البحث موسوما بـ: "**ظَاهِرَةُ إِتْلاَفِ الكُتُبِ فِي التَّارِيخِ الإِسْلاَمِيِّ (مَدْخَلٌ لِدِرَاسَةِ الظَّاهِرَة)**".

الكلمات المفتاحية: الكتاب؛ التاريخ الإسلامي؛ الإتلاف؛ الحرق؛ الإغراق.

Abstract:

This is an introduction to the study of the issue of the phenomenon of book destruction in Islamic history, through which we learn about the importance of knowing the phenomenon and its types, methods, causes, literature on it, and scholars' approaches to dealing with it and presenting it.

Keywords:

The book; The Islamic history; The destruction; The burn; The dump.

1. مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الديان، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله عظيم الشان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ما طلع القمران، واختلف الملَوان. أما بعد:

فعندما يجري ذكر الكتاب لا يكاد يحضر في الذهن إلا ذلك الجليس في وقت الغربة، والأنيس في وقت الوحشة، الذي تحمله براحتيك، وتنظر إليه بمقلتيك، وتقلب صفحاته بأناملك، وتقرأ ما فيه من علم بقلبك ولسانك، فتراه يعرض عليك من العلوم أنواعا، ومن الفنون أفنانا، فمرة يكون مفسرا ومحدثا وفقيها، وكرة مؤرخا وراويا، ومرة أديبا وشاعرا، وأخرى واعظا ومذكرا... يجمع لك المتفرق من الوقائع والأحداث وكأنها رأي العين، ويصور لك الحروب والملاحم من غير أن يصيبك منها سهم ولا رمح ولا سيف، ويأتيك بالأعلام من العلماء والأدباء والشعراء والخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء والوجهاء والمذكِّرين والوعاظ وكأنهم جالسون حولك تأخذ من علمهم وأدبهم وسياستهم وحكمتهم وتجربتهم ودهائهم ووعظهم ...فالكتاب هو الذاكرة عندما تخون الحافظة، وهو السجل الذي يحفظ فيه دين الأمة وتاريخها وعلومها وثقافتها وإنجازاتها وعهودها ومواثيقها ونظامها ودواوينها...وما قيل في فضل الكتاب هو كتاب، والذي قلته حرف من كتاب.

ومع هذه الإشارات إلى أهمية الكتاب التي توجب الاهتمامَ به وحفظَه؛ فقد أتت على الكتاب نوائب الزمان ومصائبه، فنالته بنصيب وافر من الإتلاف بالحرق مرة وبالدفن كرة وبالإغراق أخرى ... في وقائع محزنة عبر التاريخ.

ومما يعرفه الباحثون بالممارسة؛ أن أي بحث يعمد الباحث لجمعه، إلا وتتغير نظرته إليه كلما تعمق في جزئياته، وتوسع في جوانبه، واطلع على مزيد معلوماته.

وهذا الذي وقع لي بادئ بدء لما شدني موضوع إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي، حيث كانت البداية مع ظاهرة حرق الكتب من طرف رواة الأحاديث والآثار، ثم لم تلبث الفكرة تتوسع وتتشعب وتضرب بجذورها في حقب التاريخ الإسلامي لتأخذ فكرة أوسع من الحرق وهو الإتلاف ليدخل فيه الحرق والدفن والإغراق ... من أنواع إتلاف الكتب.

وكذلك خرج الإتلاف بالفعل من دائرة رواة الأحاديث والآثار إلى غيرهم، وكذلك القول في الأسباب التي دفعت إلى إتلاف الكتب، وأيضا في العصر الذي حدثت فيه هذه الحادثة، والأحكام الشرعية المترتبة على هذا الفعل... فكلما تقدمت فيه توسعت مباحثه وتنوعت منازعه.

فوقفت أمام موضوع حديثي تاريخي فقهي أدبي سياسي اجتماعي نفسي ... تتجاذبه مناهج بحثية متعددة بين استقراء ووصف وتحليل ومقارنة ... فحدثتني نفسي بالعدول عن هذا الموضوع الكبير الذي لا يمكن جعل مبحث من مباحثه مقالا فكيف بفصل من فصوله؟ فكيف بما هو أكبر من ذلك؟

ثم ثبطني ما وجدته من كتب وبحوث مع قلتها تتحدث عن ظاهرة إتلاف الكتب وسأشير إليها في موضعها وأبين ما تضمنته من مباحث ذات الصلة بموضوع ظاهرة إتلاف الكتب.

ثم رأيتني أمشي القهقرى أريد أن أكتفي بمتطلبات المقال فجعلت أحذف من خطتي ما يمكن أن يتقاطع مع غيري في الخطوط العريضة للموضوع حتى اهتديت إلى زبر مدخل لدراسة ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي أتناول فيه: أهمية معرفة ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي، وتعريف الإتلاف، وبيان أنواعه، وتاريخ ظهور إتلاف الكتب، وطرق إتلاف الكتب، وأسباب إتلاف الكتب، وأنواع الكتب المتلفة، وأنواع المتلفين للكتب، والمؤلفات التي تناولت موضوع إتلاف الكتب، ومنهج العلماء في عرض وقائع إتلاف الكتب، والخاتمة.

ولم أر من تطرق إلى هذا المدخل في حدود اطلاعي المتواضع، ولا أدعي فيه شيئا من الإحاطة والإلمام، وإنما أرجو أن يليق به على استحياء وصف المحاولة والتقريب.

2. أهمية معرفة ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي:

تتمثل أهمية معرفة ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي فيما يأتي:

1/ تدفع الباحث إلى قراءة عدد هائل من الكتب وتصفح مقدماتها وفهارسها، وذلك في علوم مختلفة مما له صلة بتخصصه، وما لا صلة له بتخصصه وهذا يورثه ثقافة واسعة، ومعرفة متنوعة تنعكس على تصوره للبحوث وكيفية تناولها.

2/ معرف السبب يعين على معرفة الحكم الفقهي، خاصة إذا كان الفاعل قدوة من أهل العلم والاجتهاد كسفيان الثوري.

3/ معرفة أسماء الكتب والمؤلفين وأسماء المكتبات ومواضعها وشيء من محفوظاتها وكنوزها.

4/ معرفة المسار التاريخي للكتاب من حيث سبب التأليف، ونسخه، ومواضعه، وما تعرض له من أنواع الإتلاف كالحرق أو الدفن ... ومعرفة سبب فقده أو نقصه أو ندرة نسخه...

5/ الوقوف على مجموعة من المغرمين بالكتب الجامعين لها المحصلين على نفائسها...

6/ الاطلاع على من ابتلي من العلماء بإتلاف مؤلفاته، أو بإتلاف مكتبته بسبب من الأسباب وما وقع لهم من الحزن والأسى حتى إن بعضهم مات تأثرا بذلك.

7/ الوقوف على الخلفيات العقدية والعلمية والسياسية ... لإتلاف الكتب مما يفيد كل دارس في تخصصه.

8/ حجم مصيبة إتلاف الكتب الإسلامية ومقدارها، التي أتت على الملايين من المخطوطات الإسلامية في شتى العلوم والمعارف.

9/ معرفة سبب الفرق بين عدد ما هو موجود في الفهارس التي فَهرست للمخطوطات الإسلامية عبر العصور، وبين عدد ما هو موجود الآن في الخزائن المختلفة، فلا شك أن إتلافها كان من أهم أسباب البون الشاسع بين عدد المخطوطات المفقودة والموجودة.

10/ معرف فضل علمائنا الذين أعادوا كتابة مؤلفاتهم التي أُتلفت من جديد، وفضل من كان يحفظ كتبا بكاملها فلما أتلفت أعاد نسخها على مراد مؤلفيها.

3. تعريف الإتلاف لغة:

تلِف على وزن فرح، أصله: ذهاب الشيء. والفعل تَلِفَ يتلَفُ تَلَفاً، فَهُوَ تَلِفٌ. التلف: عطب وهلاك في كلِّ شيء، وأتْلَفَ فلان مالَه: أفناه إسرافاً... وَرَجُلٌ مِتْلَفٌ ومِتْلافٌ: يُتْلِفُ مالَه، وَقِيلَ: كَثِيرُ الإِتْلافِ. وَمِتْلَافٌ لِلْمُبَالَغَةِ. والمَتْلَفَةُ: مَهْواةٌ مُشْرِفةٌ عَلَى تَلَفٍ. والمتالف: المهالِك.

المَتْلفُ: القَفْرُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنه يُتْلِفُ سالِكَه فِي الأَكثر. والتَّلْفةُ: الهَضْبةُ المَنِيعةُ الَّتِي يَغْشى مَن تَعَاطَاهَا التَّلَفُ.

وباعتبار أصل المعنى الذي تدور عليه مادة [ت ل ف] فإن إتلاف الكتب هو

إذهابها وإهلاكها بحرقها أو دفنها أو إغراقها... أو بغير ذلك من طرق الإتلاف الآتي بيانها.

(الخليل بن أحمد، ج8، ص120)؛ (الأزهري،2001، ج14، ص202)؛ (ابن منظور، 1414، ج9، ص18)؛ (ابن فارس، 1979، ج01، ص353)؛ (أحمد الفيومي، ج01، ص76)؛ (الفيروز آبادي، 2005، ص794).

4. <u>أنواع الإتلاف</u>: تتمثل أساسا فيما يأتي:

1.4. أنواع إتلاف الكتب باعتبار المباشرة والتسبب هو نوعان:

الإتْلاف مُبَاشَرةً: هو إتلاف الشيء بالذات ويقال لمن فعل مباشر. وهو الأكثر في إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي. (الإحسان المجددي البركتي، 2003م، ص16).

الإتْلاف بالتَّسبُّب: هو التسبب لتلف شيء. وله حالات كالتحريض على حرق كتب جماعة من العلماء ككتب الغزالي (اليافعي،1997، ج3، ص205) وغيره.

2.4. أنواع إتلاف الكتب باعتبار طريقة الإتلاف:

الحرق، الدفن، الإغراق، الغسل، التمزيق [فرم الورق في العصر الحديث] والقطع... وسيأتي بيان هذه الطرق في موضعها.

(الحزيمي، 2002، ص27)؛ (خالد سعيد، 2018، ص16)؛ (خالد الشنو، 2010، ص110)؛ (يحي وهيب الجبوري، 1998، ص297-330).

3.4. أنواع الإتلاف باعتبار الحس والمعنى:

الإتلاف الحسي وهو المعروف بتلك الطرق المشار إليها قريبا، ولكن هناك نوع من الإتلاف سميته الإتلاف المعنوي، وهو أن ذات الكتاب تبقى محفوظة ولكن مضمونه يتلف معنويا، وقد أشار ابن حزم الأندلسي إلى الإتلاف المعنوي لمّا أحرق المعتضد بن عباد كتبه بإشبيلية (المقري التلمساني، 1997، ج2، ص82)، فقال:

دعوني من إحراقِ رقٍّ وكاغدٍ ... وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ من يدري

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمّنه القرطاس، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلّت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

وأذكر مثالين لتوضيح الإتلاف المعنوي:

النوع الأول: الإتلاف المعنوي للكتب بالرد على ما تضمنته بالرد والإبطال.

فقد حدَّث محب الدين محمد بن النجار قال: حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية، وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله، فجرى حديث المعرّي، فذمّه الخازن وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته، فقال له الوجيه: وأيّ شيء كان هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال له: أخطأت في غسله، فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبة الله وقال له: مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال: نعم لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيرا منه أو دونه، فإن كان مثله أو خيرا منه وحاش لله أن يكون ذلك فلا يجب أن يفرّط في مثله، وإن كان دونه وذلك ما لا شكّ فيه فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه، فاستحسن الجماعة قوله ووافقه ابن هبة الله على الحقّ وسكت. (ياقوت الحموي، 1993، ج5، ص2266).

النوع الثاني: الإتلاف المعنوي للكتب بتعطيلها ومنع القراء والباحثين والمحققين من الوصول إليها، وهذا حال الكثير من المخطوطات ونفائس المطبوعات، والعديد من الخزائن والمكتبات العامة والخاصة. (يحي وهيب الجبوري، 1998، ص333–383)؛ (ياسين بن كرامة الله مخدوم، 1431هـ، ص251)؛ (خالد الشنو، 2010، ص152–159).

4.4. أنواع إتلاف الكتب باعتبار الحكم الشرعي:

– النوع الأول: الإتلاف المشروع للكتب كإتلاف الكتب إذا بليت وتعذر الانتفاع بها، وذلك بقصد تعظيمها وصيانتها عن أي نوع من أنواع الامتهان.

– النوع الثاني: الإتلاف الممنوع للكتب كحرق كتب الحديث وكتب الفقه امتهانا واستخفافا بالشريعة.

وهناك جملة من تفاصيل الأحكام لأنواع من إتلاف الكتب عند: (ياسين بن كرامة الله مخدوم، 1431هـ، ص406)؛ (خالد الشنو، 2010، ص110).

5. تاريخ ظهور إتلاف الكتب في الإسلام:

بدأت ظاهرة إتلاف الكتب بطريقة المحو في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأمثلة أمره صلى الله عليه وسلم الصحابة رضي الله عنهم في أول العهد بأن لا يكتبوا الحديث عنه وأن يشتغلوا بالقرآن الكريم، فقال صلى الله عليه وسلم: " لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليَمْحُه...". (مسلم بن الحجاج، 1991، 3004).

ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم استجابوا لذلك.

وفي قصة توبة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم لما تخلفوا عن غزوة تبوك وفيها: "... وفبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالْحَق بنا نُوَاسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، **فتيممت بها التنور فسجرته بها** ...". (البخاري، 1987، 4418)؛ (مسلم بن الحجاج، 1991، 2769)؛ (ينظر: التعليق رقم01).

قال ابن القيم [751هـ]: "قوله: فتيممت بالصحيفة التنور، فيه المبادرة إلى إتلاف ما يُخشى منه الفساد والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه". (ابن قيم الجوزية، 1994، ج3، ص509).

وفي عصر الصحابة والخلفاء الراشدين ولما وحد عثمان بن عفان [35هـ] رضي الله عنه الأمة على المصحف الإمام أمر بحرق غيره من المصاحف التي كانت عند عامة الناس. (أكرم الدليمي، 2006، ص193)؛ (مساعد بن سليمان الطيار، 1431هـ، ص44).

وفي عصر التابعين أتلف عروة بن الزبير[94هـ] كتبا له ثم ندم على ذلك. قال: "كُنَّا نَقُولُ لَا يُتَّخَذُ كِتَابٌ مَعَ كِتَابِ اللهِ، فَمَحَوْتُ كُتُبِي، فَوَ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ كُتُبِي عِنْدِي إِنَّ كِتَابَ اللهِ قَدِ اسْتَمَرَّتْ مَرِيرَتُهُ ". (أبو نعيم الأصبهاني، 1974، ج2، ص176)؛ (ينظر: التعليق رقم02).

وعن هشام بن عروة قال: أحرق أبي يوم الحرَّة كتب فقه كانت له. قال: فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب إلى من أن يكون لي مثل أهلي ومالي". (ابن سعد، 1968)؛ ووجد من أتلف الكتب من الزهاد والعباد، والمحدثين... وغيرهم، وهذا لما ظهرت الفِرق، والمذاهب الفقهية، والاختلافات السياسية، والحروب داخل الأمة الإسلامية وخارجها، بغض الطرف عن الحوادث الطبيعية التي ليس للإنسان فيها يد كالحرائق والفياضانات والأَرَضة ...وهذه الظاهرة من حيث انتشارها قوة وضعفا لها ارتباطات بتاريخ حركة التأليف، وظهور الطباعة، كما لها صلة بإتلاف المكتبات في التاريخ الإسلامي.

6. طرق إتلاف الكتب:

وقع إتلاف الكتب بطرق يمكن إجمالها في الآتي:

1/- إتلاف الكتب بالحرق: تعتبر هذه الطريقة من أشهر طرق إتلاف الكتب حيث استعملت غالبا في الساحات العامة وغالبا هي طريقة السلطة في التعبير عن رفضها العلني لكتب وأفكار معينة.

2/- إتلاف الكتب بالدفن: يغلب على هذه الطريقة الإتلاف الفردي للكتب الخاصة.

3/- إتلاف الكتب بالإغراق والغسل والمحو: تكون غالبا في الإتلاف الفردي للكتب، كالإغراق في البحار أو الأنهار، والغسل للاستفادة مرة أخرى من الورق.

4/- إتلاف الكتب بالقطع والتمزيق: أقل الوسائل المستعملة في إتلاف الكتب واستعملت غالبا من قبل السلطة.

5/- استخدام المخطوطات في تجليد مخطوطات جديدة: وهذا وإن كان يدخل في الطريقة الرابعة [إتلاف الكتب بالقطع والتمزيق] إلا أنني خصصته بالذكر لشناعته (ينظر: التعليق رقم03).

(الحزيمي، 2002، ص27-28)؛ (خالد سعيد، 2018، ص16)؛ (شعبان عبد العزيز خليفة، 2001، ص249)؛ (يحي وهيب الجبوري، 1998، ص295-331-383)؛ (الطاهر أحمد بكري، 2008)

7. أسباب إتلاف الكتب:

الذين ذكروا أسباب إتلاف الكتب منهم من ذكر أبرزها، ومنهم من أضاف على غيره، وهناك أسباب ظهرت لي كالأسباب المتداخلة يدخل فيها أكثر من سبب، وكالأسباب الغامضة التي لا تكاد تعرف، وهناك أسباب عجيبة وغريبة وطريفة وغيرها مما سأجليه في هذه المحاولة: (الحزيمي، 2002، ص17-24)؛ (خالد سعيد، 2018، ص12)؛ (شعبان عبد العزيز خليفة، 2001، ص249)؛ (نوفل محمد نوري، 1998، ص32-46)؛ (حامد الشافعي دياب، 1998، ص 134-137).

1/ الأسباب الشرعية: يكاد أن يكون هذا السبب من أهم الأسباب؛ بل يكاد يكون السبب الرئيس في ظاهرة إتلاف الكتب في تراثنا الإسلامي والعربي، مثل حرق المصاحف في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

2/ الأسباب العلمية: وهذا السبب من الأسباب الدقيقة التي لا يفقهها إلا من أدمن المطالعة لكتب التراجم وعلم الأسانيد.

مثال: في مرحلة الجمع والتدوين والإملاء، كان الشيخ يملي على تلاميذه المادة وغالبا هي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكان التلاميذ يحضرون عند الشيخ يحضرون جميع عدة الاستملاء فيكتبون عنه وتضبط أسماء هذا المجلس في محضر يحفظ عند الشيخ وعند تلاميذه الذين يريدون نفس هذا المحضر فيعرف من حضر وسمع ومن لم يحضر وتاريخ السماع. وهذا المحضر وما سمعه التلميذ يطلق عليه (أصل السماع) ولأنهم يخشون أن يزور أحد الكذابين هذا الأصل بحيث يكشط اسم أحد التلاميذ ويضع اسمه في مكانه كان العلماء يتلفون هذه الأصول في حياتهم أو يوصون بإتلافها بعد وفاتهم وهذا ما سلكه أغلب علماء الحديث صيانة للحديث النبوي، والأمثلة على ذلك كثيرة.

3/ الأسباب السياسية: كواقعة حرق كتاب يحوي فضائل الأنصار وأهل المدينة سنة 82هـ حيث خشي عبد الملك بن مروان أن يقع بيد أهل الشام فيعرفوا لأهل المدينة فضلهم وهو خلاف ما عممه عنهم بنو أمية في الشام.

4/ الأسباب الاجتماعية والقبلية: فتتلف كتب لمؤلفين وشعراء ذكروا بالذم أو الهجاء أهل بلد أو قبيلة معينة ... كما وقع لكتاب ابن الحائك الحسن بن أحمد الهمداني "الإكليل" في معارف اليمن وعجائب أهله. (جمال الدين القفطي، 1986، ج1، ص314).

5/ الأسباب النفسية: كما صرح به أبو حيان التوحيدي[400هـ] لما قام بحرق مؤلفاته. (ياقوت الحموي، 1993، ج5، ص1930).

6/ الأسباب التعصبية: عبر عدة أنساق منها الاجتماعي ومنها الديني ومنها المذهبي أو العرقي ومنها السياسي ... مثال كتاب " النصرة لمذهب إمام دار الهجرة" للقاضي عبد الوهاب حيث وقع بيد بعض قضاة الشافعية بمصر فغرقه في النيل بسبب التعصب المذهبي. (المقري التلمساني، 1997، ج3، ص274).

7/ الأسباب الحربية: من أوضح الأمثلة حرق المغول للكتب الإسلامية ببغداد سنة 656هـ حيث اتخذوها لبناء جسر يعبرون عليه نهر دجلة هذا النهر الذي

تغير لونه بحبر هذه الكتب التي أغرقت فيه لكثرتها. "وكانت شيئا لا يعبر عنه". كما يقول ابن خلدون. (ابن خلدون، ج3، ص 537).

ومنها الحروب الصليبية التي أتت على كتب ومكتبات إسلامية منها دار العلم بطرابلس الشام سنة 399هـ، التي أسسها بنو عمار، كانت تضم ثلاثة ملايين كتابا منها خمسون ألف مصحف. (نوفل محمد نوري، 1998، ص42).

8/ الأسباب المتداخلة بين أكثر من سبب: كما وقع لأبي حيان التوحيدي[400هـ] الذي قام بحرق كتبه في آخر حياته معللا فعله بمجموعة من الأسباب برسالة أرسلها إلى أحد أصحابه (ياقوت الحموي، 1993، ج5، ص1929)، في نصها أكثر من تأويل لنية أبي حيان التوحيدي في سبب حرق كتبه منها تراجعه عن بعضها، والآخر كان بسبب أنها لم يكن الغرض منها وجه الله عز وجل، والثالث كان بسبب عدم جدوى إبقائها لخصومه الذين ينالون منه حيا أو ميتا، والرابع سبب يتعلق بعدم فهم الآخرين محتواها والقصد منها، والخامس كان يتعلق بقناعاته بأن الحياة ماضية ولا تستحق ذلك العناء والإنسان مشغول عن الله عز وجل. (نوفل محمد نوري، 1998، ص37). **فجمع بين السبب العلمي، والنفسي، والاجتماعي، والديني.**

9/ الإتلاف بسبب الخطأ: ولم أجد من خص هذا السبب بالذكر. وهذا السبب وقع لابن أبي السعود أحمد بن إسماعيل [870هـ]: حيث غسل جميع ما كان عنده من شعر ونثر. جمع أوراق نظمه ثم أفرد منها ما لا يرتضيه ليغسله ففاجأه بعض أصحابه فقام لتلقيه وأمر من كان عنده بغسل الأوراق التي عن يمين مجلسه فاشتبه الأمر عليه بحيث غسل ما كان يجب بقاؤه فلما عاد سقط في يده وغسل الباقي. (السخاوي، ج1، ص231).

10/ أسباب غير واضحة أو محتملة:

كفعل سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج دعا رجلا فقال: اذهب فأحرق كتبي. (أبو بكر الدينوري المالكي، 1419هـ، ج7، ص136).

وكفعل شجاع بن فارس بن حسين أبو غالب الذهلي [507هـ] وكان قد عمل مسوَّدة " تاريخ بغداد " ذيلًا عَلَى تاريخ الخطيب، فغسَله في مرض موته. (شمس الدين الذهبي، 2003، ج11، ص88).

11/ أسباب يغلب عليها وصف العَجب والطرفة والغرابة.

منها: أن الصنعاني كان مصابا ببعض الأمراض فطلب له أهله العلاج ووضعت له الوصفات إلا أن ذلك لم يفده شيئا. ثم جيء له بكتابين الأول (الإنسان الكامل) تأليف الجيلي، والآخر (المضنون به على أهله) من تأليف الغزالي – وقد قال الصنعاني "ولا أظنه من مؤلفاته، وإنما هو مكذوب عليه "، قال الصنعاني:

"ثم طالعت الكتابين فوجدت فيهما كفرا صريحا، فأمرت بإحراقهما بالنار، وأن يطبخ على نارهما خبز لي"، فأكل من ذلك الخبز بنية الشفاء. فما شكا رحمه الله بعد ذلك الأكل مرضا. (محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، 2013، ص44).

– ومنها: بسبب الغيرة من الكتب أو الانتقام منها من قِبل النساء:

كانت للمبشر بن فاتك زوجة كبيرة القدر من أرباب الدولة، فلما توفّي نهضت هي وَجوَارٍ معها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب وأنه كان يشتغل بها عنها، فجعلت تندبه وفي أَثْنَاء ذلك ترمي الْكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدَّار هي وجواريها، ثمّ شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها. فهذا سبب أن كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال. (ابن أبي أصيبعة، ص560).

– ومنها: بسبب الحداد على الميت: كالقاضي زين الدين عمر بن سهلان الساوي [450هـ] الذي تنقل في طلب العلم وكان قد استقر في نيسابور، وكان يأكل من كسب يده ويرتفق بالنَّسخ ويبيع نسخة من كتاب الشفاء بخطه بمائة دينار كما ذكر من ترجم له، وللقاضي عمر تصانيف كثيرة منها كتاب البصائر النصيرية في المنطق، وآخر في الحساب ورسائل متفرقة وله تصانيف أُخَر، أحرقت مع بيت كتبه بساوة بعد وفاته حدادا عليه. (ابن فندمه، ص36).

12/ إتلاف الكتب لأسباب تتعلق بالأقدار:

وهذا يكون إما بحريق يصيبها دون قصد، أو غرق المكان التي فيها فتتلف ...، وهذا ما أصاب مؤلفات كثيرة لا تحصى، وممن احترقت كتبه عبد الله بن لهيعة [174هـ] في حادثة سنة [170هـ] فساء حفظه واختط؛ لأنه كان يضبط الحديث ضبط كتاب، واستثنى المحدثون رواية الثقات عنه قبل أن تحترق كتبه. (الطاهر أحمد بكري، 2008).

13/ تلف الكتب لأسباب تتعلق باحتكار ما فيها من علوم:

ينسب هذا إلى أبي علي الحسين بن عبد الله الشهير بابن سينا[428هـ] في قصة. (ابن فندمه، ص90)؛ (ابن خلكان، ج2، ص158)؛ (ابن أبي أصيبعة، ص403)؛ (نوفل محمد نوري، 1998، ص45-46)؛ (يحي وهيب الجبوري، 1998، ص301).

8. المؤلفات التي تناولت موضوع إتلاف الكتب.

مكن تقسيم المؤلفات في موضوع إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي إلى قسمين: القسم الأول: المؤلفات المصادر: وهي التي تناولت موضوع إتلاف الكتب تناولا مباشرا. القسم الثاني: المؤلفات المراجع: وهي التي تناولت موضوع إتلاف الكتب تناولا ضِمنيا، مثل كتب الفقه في أبواب الطهارة، والجنائز، والجهاد، والضمان، والوصية. ومثل كتب الحِسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسياسة الشرعية. ومثل كتب التاريخ والرجال والطبقات. ومثل كتب العلم وفضله وآدابه. وسأذكر مؤلفات لكل قسم مع ذكر تعريف موجز لكل مؤلَّف.

أولا: المؤلفات المصادر.

1/ حرق الكتب في التراث العربي، تأليف: ناصر الحزيمي. ط/1. 2002. منشورات دار الجمل.

جمع المؤلف في كتابه بعض حوادث وأخبار إتلاف الكتب في التراث العربي وقصره على نوعين –باعتبار الجهة المتلِفة –فقط من الإتلاف. ورتب كلا منهما على السنوات.

النوع الأول: إتلاف السلطة للكتاب، وتتجلى السلطة هنا بجميع أنماطها سواء تتمثل بسلطة الحاكم أو المجتمع أو الفرد أو تتمثل بسلطة الأيدولوجيا أو العادات والتقاليد.

النوع الثاني: الإتلاف الشخصي للكتب لأسباب علمية أو اعتقادية أو نفسية، وهو كثير في تراثنا العربي والإسلامي.ص/9.

وذكر أنه لم يتناول الإتلاف بسبب الحروب والقلاقل والتلف بسبب الحوادث والكوارث، وهي أسباب لها دور كبير في إتلاف الكتب لأنه أراد إبراز السبب القصدي وراء عملية الإتلاف هذه.ص/9.

حدد أبرز أسباب إتلاف الكتب وهي ستة أسباب: شرعية، وعلمية، وسياسية، واجتماعية قبلية، نفسية، تعصبية.ص/17.

ذكر طرق إتلاف الكتب، وأنها وإن تعددت فإنها لم تخرج عن أربع طرق معروفة معهودة: الحرق، الدفن، الغسل بالماء والإغراق، التقطيع والتحريق.ص/27.

ذكر أمثلة للنوع الأول باعتبار جهة الإتلاف: إتلاف السلطة للكتاب، أو السلطة واغتيال الكتب.ص/29-68.

ذكر أمثلة للنوع الثاني باعتبار جهة الإتلاف: الإتلاف الشخصي. العلماء الذين أتلفوا كتبهم.ص/69-138.

2/ حرق الكتب- تاريخ إتلاف الكتب والمكتبات، تأليف: خالد سعيد.ط/1. 1439-2018. دار أثر للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية. الدمام.

ذكر أن كتابه يُعد استمدادا وإضافة إلى ما كتبه ناصر الحزيمي. ص/5.

ذكر وجوه الإضافة عليه: أ.تعقب حوادث إتلاف الكتب منذ إشراقة شمس الإسلام وحتى يومنا هذا.ب. حرق الكتب والمكتبات في ديار الإسلام في الماضي والحاضر. ج. حرق الكتب والمكتبات عند غير المسلمين في الماضي البعيد أو الحاضر القريب. ص/6.

ذكر أنه قسم كتابه إلى بابين، وكل باب قسمه إلى فصلين. ص/6-7.

الباب الأول: الفصل الأول: حرق الكتب عند المسلمين الفصل الثاني: حرق المكتبات عند المسلمين.

الباب الثاني: الفصل الأول: حرق الكتب عند غير المسلمين الفصل الثاني: حرق المكتبات عند غير المسلمين.

3/ إتلاف الكتب في الحضارة العربية الإسلامية- دراسة تاريخية في أسبابها في العصر العباسي [132/749-656/1258]. مجلة التربية والعلم – المجلد:17، العدد:4. سنة: 2010 . د. نوفل محمد نوري. قسم التاريخ / كلية التربية. جامعة الموصل.

حاول الباحث الوقوف على الدوافع التي بدت متنوعة ومتباينة في أهدافها إلا أنها اشتركت في ضياع كم هائل من تراث الأمة، وحصرها تاريخيا بالعصر العباسي ... وذكر تنوع الدوافع بين الدافع الديني والاجتماعي والسياسي والذاتي والعرضي ... ص/32. وهذه الدوافع:

أولاً: إتلاف الكتب من قبل أصحابها لأسباب ذاتية وموضوعية. ص/32.

ثانياً: تلفها لأسباب تتعلق باعتقاد مؤلفها بعدم معرفة قيمتها من بعده. ص/35.

ثالثاً: تلفها لأسباب تتعلق بالحداد على وفاة صاحبها.ص/37.
رابعاً: تلف الكتب لأسباب تتعلق بالتباين الثقافي والفكري.ص/38.
خامساً: إتلاف الكتب لأسباب تتعلق بالحروب.ص/41.
سادساً: إتلاف الكتب لأسباب طبيعية.ص/43.
سابعاً: تلف الكتب لأسباب تتعلق باحتكار ما فيها من علوم.ص/45.
ثامناً: إتلافها لأسباب اجتماعية. ص/46.
ذكر مع كل سبب أمثلة تاريخية لإتلاف الكتب، وأحيانا يتوسع في بعض الأسباب بذكر الآثار المترتبة عليها وما إلى ذلك.
من هذه الأسباب المذكورة ما هو تابع لسبب قبله كالسبب الثالث والسابع الذَيْن يمكن إلحاقهما بالسبب الأول [الأسباب الذاتية]. ومما أضافه على الحزيمي الأسباب الحربية.

ثانيا: المؤلفات المراجع.

1/ الكتب والمكتبات في العصور الوسطى. الشرق المسلم والشرق والأقصى. شعبان عبد العزيز خليفة. ط2/ شوال 1421هـ 2001م. الناشر: الدار المصرية اللبنانية. تحت عنوان: مصائر الكتب الإسلامية. ذكر أن ما وصلنا من الكتب الإسلامية التي نشرت عبر أكثر من عشرة قرون قد لا يربو على 10 بالمئة، وقد هلك تسعة أعشارها، ثم ذكر أسباب هلاك الكتب الإسلامية وسأقتصر على ما له صلة بمعنى الإتلاف: 1. الحروب والغزو الخارجي. 2. الحروب والفتن الداخلية. 3. اضطهاد المذاهب والمؤلفين. 4. حوادث الحريق والغرق قضاء وقدرا. 5. دفن وغسل وحرق الكتب. 6. إتلاف كتب الغير لأسباب غير مفهومة.7. استخدام المخطوطات في تجليد مخطوطات جديدة. 8. العوامل الطبيعية والإهمال...ص/249-258.

2. الكتاب في الحضارة الإسلامية. الدكتور يحي وهيب الجبوري الأستاذ بجامعة آل البيت. ط/1. دار الغرب الإسلامي 1998. بيروت.

في الفصل السابع ما قبل الأخير من الكتاب ص/295-331 ذكر: آفات الكتب. أورد تحته وقائع كثيرة مما له صلة بإتلاف الكتب وهي: حرق الكتب، غرق الكتب، وغسل الكتب، ودفن الكتب.

ملاحظات: 1.رتبها على السنوات.2. قَرَن الحديث عن إتلاف الكتب حرقا وغرقا وغسلا ودفنا ... بالحديث عن إتلاف كتب المكتبات والخزائن العامة والخاصة والمدارس والمساجد.3. مزج الحديث عن وقائع إتلاف الكتب والمكتبات بالأسباب والدوافع التي كانت وراء ذلك ولم يفردها بعناوين بارزة، فذكر ضمنا من الأسباب: الحروب، الفتن الطائفية والمذهبية، التعصب الديني، الفياضانات.4. يذكر ما يصاحبها من قتلٍ ونهبٍ واضطهادٍ.5. جمع وقائع لجل البلدان الإسلامية والحواضر العلمية شرقا وغربا.

3. الكتب والمكتبات في الأندلس حامد الشافعي دياب ط/1. 1998الناشر دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة.

تحت عنوان: نهاية المكتبات ومصيرها. ذكر أسبابا هي: 1. نظام الحكم. 2. أسباب عسكرية (الحروب الخارجية). 3. أسباب اجتماعية. 4. أسباب اقتصادية. ص/134: ثم ذكر دوافع إحراق الكتب: 1. من أجل التقرب إلى فئات الشعب.2. العقيدة الدينية.3. التعصب وطمس الهوية الإسلامية. 5. الظروف الطارئة [الأقدار]. 6. كراهية الكتب من طرف مؤلفيها. ص/ 137:

4. أحكام الكتب في الفقه الإسلامي، للدكتور ياسين بن كرامة الله مخدوم، تقديم الدكتور صالح بن عثمان الهليل، الطبعة الأولى 1431هـ، دار كنوز إشبيليا. (مطبوع في مجلدين). أصل الكتاب رسالة علمية نال بها الباحث درجة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

هذا الكتاب وإن كان في أحكام الكتب في الفقه الإسلامي، إلا أنه تضمن في مباحثه ومطالبه كثيرا من المسائل التي لها صلة بموضوع إتلاف الكتب من أهمها:

ص/161. حرق كتب الغال من الغنيمة. ص/216. الضمان بإتلاف الكتب. ص/227. إتلاف الكتب المبدلة وكتب البدعة. ص/263. ما يترتب على تلف الكتاب المستعار. ص/319. وصية الإنسان بإتلاف كتبه. ص/406. حرق كتب الشريعة اسخفافا بها. ص/408. حرق الكتب ودفنها بدافع الزهد ونحوه. ص/412. حرق الكتب ودفنها إذا خرجت عن الانتفاع بها. ص/418. حكم التخلص من الكتب بطحن أوراقها وإعادة تصنيعها.

5. مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي. خالد بن عبد الرحمن بن عيسى الشنو. دار البشائر الإسلامية. الطبعة الأولى. 2010/1431.

وهذا الكتاب متضمن لبعض المسائل الفقهية المتعلقة بإتلاف الكتب ولكن بنسبة أقل من سابقه: ص/110. كيفية إتلاف الكتب. ص/133. حكم حرق متاع الغال من الغنيمة إذا كان فيه كتب.

6. تلبيس إبليس، تأليف: جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي [597هـ]. ط/1. 1421هـ/ 2001م. الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

7. صيد الخاطر، المؤلف نفسه. ط/1. 1425هـ /2004م. الناشر: دار القلم، دمشق. عناية: حسن المساحي سويدان.

يمكن القول: إن ابن الجوزي من أوائل من تكلم عن ظاهرة إتلاف الكتب من قِبل جماعة من القوم بسبب تلبيس الشيطان عليهم. وقد فصَّل في أسباب كثيرة لإتلاف الكتب، وانتقد هذه الأسباب بين معتذر لبعضهم، ومنكر لبعض آخر، مع بيان حكم ما ارتكبوه شرعا، منبها على المصالح والمفاسد في ذلك.

تلبيس إبليس: ص/288-290: ذكر تلبيس إبليس على جماعة من القوم في دفنهم كتبَ العلم وإلقائِها في الماء. صيد الخاطر في مواضع: ص/46-48، 188، 237.

7. سوء الحفظ وأثره في قبول الحديث. رسالة ماجستير. الطاهر أحمد بكري. جامعة دمشق، كلية الشريعة، 2008/1429.

ذكر أسباب سوء الحفظ، وعدَّد منها: ذهاب الكتب، ثم ذكر أربعة أسباب لذهابها: احتراق الكتب، ودفنها، وغرقها، وسرقتها.

8. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية. تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية[751هـ]. ط/1. 1428هـ. الناشر: دار عالم الفوائد – مكة المكرمة. تحقيق: نايف بن أحمد الحمد.

ولام ابن القيم عن إتلاف الكتب يدور حول الناحية العقدية والفقهية والسياسة الشرعية والحِسبة. ص/77، 115، 233.

9. مؤلفات لم تظهر بعد:

منها كتاب عن "المؤلفين والمؤلفات" للعلامة بكر أبوزيد ضمن سلسلة له موسومة بـ: "النظائر" قال عن هذا الكتاب:" وهذا أنفس ما وجدتُ فقد أثبتُّ فيه معجما للمؤلفات المنحولة، وما وقع في اسمه أو نسبته ضرب من الوهم والغلط، وثبتا بذكر الموصوفين بسرعة القراءة... وذكرت فيه الكتب التي عُملت لها الولائم والتي أهديت للخلفاء ونحوهم. **والكتب التي أتلفت بحرق أو غرق وسر ذلك وهي كُثُر...**". (بكر أبو زيد، ص13).

9. أنواع الكتب المتلفة والمتلفين:

أكثر الكتب إتلافا هي الكتب الشرعية، وهذا واضح من تَأَمُّلِ أسباب إتلاف الكتب، فقد سبق وأن أشرنا إلى أن أكثر الأسباب لإتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي هي الأسباب الشرعية، ولكن نال الكتب الأخرى في العلوم الأخرى نصيبُها من الإتلاف، وإذا كانت المصاحف لم تسلم من هذه الظاهرة فكيف بغيرها ككتب الحديث، والفقه، والنحو، والأدب، والتاريخ، والفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وكتب الكفر والشرك والإلحاد والزندقة والبدع والضلال، والسحر والشعوذة ... وغيرها.

كما تنوّع المتلفون للكتب واقتصر بعض الباحثين على نوعين من الإتلاف: النوع الأول: إتلاف السلطة للكتاب كسلطة الحاكم والمجتمع والفرد بأفكاره وعاداته وتقاليده...النوع الثاني: الإتلاف الشخصي للكتب لأسباب علمية أو اعتقادية أو نفسية وهو كثير في تراثنا العربي والإسلامي. (الحزيمي، 2002، ص09)

وبِغَضِّ النظر عن الحكم الشرعي والدافع لإتلاف الكتب؛ فقد فعل هذا الصحابة، والتابعون، والمحَدِّثون، والفقهاء، والحكام، والأدباء، والعباد، والزهاد، والمتعصبون، والجهال، والحاقدون ... وغيرهم كثير.

وهنا لا بد أن نفرق بين من أتلف كتبه، ومن أتلف كتب غيره، ومن أتلفهما معا.

ومن الأمثلة على من أتلف كتبه: أبو حيان التوحيدي [400هـ].

ومن الأمثلة على من أتلف كتب غيره: زوجة وابنة عم الليث بن رافع بن نصر بن سيار، صاحب الخليل بن أحمد الفراهيدي[170هـ] التي أحرقت كتاب "العين" للخليل

بسبب غيرتها من جارية حسناء اشتراها زوجها الليث. (ياقوت الحموي، 1993، ج5، ص2254-2255).

ومن الأمثلة على من أتلفهما معا: أبو بكر الجِعَابي[355هـ]، فقد أوصى لما مات بأن تُحرق جميع كتبه، فأُحرقت وكان فيها كتب كثيرة للناس؛ منها مائة وخمسون جزءا لأبي الحسين بن البوّاب[376هـ]، فذهبت في جملة ما أحرق. (الخطيب البغدادي، 2002، ج3، ص26)؛ (شمس الدين الذهبي، 1985، ج16، ص88). وقال ابن كثير[774هـ] معلقا على هذه الفعلة المنكرة:" فبئس ما عمل". (ابن كثير، ج11، ص262).

10. منهج العلماء في تناول وقائع إتلاف الكتب:

يمكن تلخيصه في الملاحظات التالية:

1/ لا يلزم من مجرد ذكر حوادث إتلاف الكتب الجوازُ الشرعي عند من ذكرها، فالتعريف لا يقتضي الاعتراف، وإنما يؤخذ الحكم الشرعي من خلال ما يضيفه الذاكر للحادثة من تعليق بالموافقة أو المخالفة كصنيع ابن الجوزي، كما يؤخذ الحكم الشرعي ممن تناول هذه الحوادث من الناحية الشرعية كصنيع من ألف في أحكام الكتب في الفقه الإسلامي.

2/ الأحداث التي في إتلاف الكتب ذُكرت بناء على المنهج التاريخي المتسامح إلى حد ما في قبول الأخبار أو ردها، وهذا على خلاف المنهج الحديثي في قبول الرواية أو ردها، إذ فيه زيادة تثبت من أجل حفظ السنة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

3/ ومن حيث حصر حوادث ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي فيمكن الجزم بعدم إمكان ذلك لثلاثة أسباب (خالد سعيد، 2018، ص06):

- السبب الأول: يتعذر على الباحث مهما تجرد لهذه المهمة وتفرغ لها أن يمسك بناصية كل حادثة جرت على مر السنين.
- السبب الثاني: الحرص على حصر كافة الحوادث يستغرق وقتا طويلا، وجهدا عظيما، وتكلفة مبالغ فيها، لا تبرر المنافع المرجو تحصيلها.
- السبب الثالث: لو قُيض للباحث جمع كل حوادث إتلاف الكتب والمكتبات لتضخم الكتاب وانتفخ بشدة، الأمر الذي سينفر القارئ منه ويصرفه عن قراءته.

4/ تباينت طرائق المؤلفين في عرض ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي: فهناك من اكتفى بإيراد الخبر فقط، وهناك من أورد الخبر مع سبب الإتلاف، وهناك من أورد الخبر مع سبب الإتلاف مع التعليق بالموافقة أو بالمخالفة أو الإنكار أو التحذير... أو غير ذلك من التعليقات.

5/ لم يتناول العلماء هذه الظاهرة في كتاب مستقل فحسب، مع قلة المؤلفات المستقلة بهذه الظاهرة، وإنما جاءت في كتب أخرى منها التاريخية ضمن عرض أحداث ترجمة شخصيات ... والفقهية ضمن بيان أحكام مسائل لها علاقة مباشرة بإتلاف الكتب كالتي تذكر في الجهاد والضمان والوصية ... والحديثية ضمن الحديث عن الرواة الذين ضبطهم ضبط كتاب لا ضبط صدر، وتلِفت كتبهم فساء حفظهم، واضطرب حديثهم فضعفهم علماء الحديث بذلك... والسلوكية ضمن بيان مزالق وقع فيها بعض العلماء بسبب الخوف من عدم الإخلاص والشغل بها عن عبادة الله تعالى ...

6/ عند ذكر إتلاف الكتب عن عالم متبوع نجد العلماء يوضحون السبب الشرعي الذي دفعه إلى ذلك، وذلك حتى لا يقتدي به الناس مطلقا دون تقيّد بالسبب الشرعي. مثاله حرق سفيان الثوري[161هـ] لكتبه. قال ابن الجوزي [597هـ]:

" ولا تخلو هذه الكتب التي دفنوها أن يكون فيها حق أو باطل أو قد اختلط الحق بالباطل. فإن كان فيها باطل فلا لوم على من دفنها، وإن كان قد اختلط الحق بالباطل ولم يمكن تمييزه كان عذرا في إتلافها، فإن أقواما كتبوا عن ثقات وعن كذابين واختلط الأمر عليهم فدفنوا كتبهم، **وعلى هذا يحمل ما يروى عن دفن الكتب عن سفيان الثوري**، وإن كان فيها الحق والشرع فلا يحل إتلافها بوجه؛ لكونها ضابطة العلم وأموالا...".(ابن الجوزي، 2001، ص290).

7/ نجد من استقرأ ظاهرة إتلاف الكتب لم يقتصر عليها فقط ليحدد أسبابها وآثارها وأحكامها... بل أضاف إليها ظاهرة إتلاف المكتبات في التاريخ الإسلامي؛ لأن إتلافها ما هو إلا إتلاف للكتاب نفسه.

11. خاتمة البحث:

بعد هذه الإطلالة السريعة على أهم جوانب ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي، حيث وقفنا على أهمية الموضوع، وعلى بداية ظهوره، وعلى أنواع الإتلاف وأصناف المتلفين، وعلى طرق الإتلاف وأسبابه ودوافعه، وعلى المؤلفات فيه، وعلى مناهج العلماء المسلوكة في تناول هذه الظاهرة... فإننا نخلص إلى نتائج وتوصيات نذكر أهمها:

أ/- أهم النتائج:

1/ موضوع ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي كبير متعدد الجوانب، تتجاذبه عدة مناهج بحثية كالمنهج التاريخي والتحليلي والاستقرائي...وغيرها.

2/ موضوع ظاهرة إتلاف الكتب ذو أهمية جليلة في عدة تخصصات على عكس ما يبدو بادئ بدء.

3/ ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي بدأت مع بداية الإسلام في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ثم انتقلت إلى العصور التي تليها مع تباين في الظاهرة من حيث أسبابها ووسائلها وقوتها وتوسعها.

4/ تعددت طرق إتلاف الكتب وإن كان بعضها يغلب على بعض، ومن هذه الطرق: الحرق، والدفن، والإغراق، والقطع.

5/ اختلف القائمون بإتلاف الكتب من حيث أصنافُهم، كما اختلفت أنواع الكتب المتلَفة، فلم يقتصر الإتلاف على صنف المحدثين مثلا، كما لم ينحصر الإتلاف على نوع الكتب الشرعية فقط.

6/ لإتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي أسباب عدة منها الشرعي ومنها السياسي ومنها الاجتماعي ومنها المتداخل في سببين أو أكثر...، وإن كان الغالب على هذه الأسباب السبب الشرعي.

7/ المؤلفات التي ذكرت هذه الظاهرة تنقسم إلى قسمين، مؤلفات مصادر، وهي التي تناولت ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي مباشرة، وهي قليلة جدا، ومؤلفات مراجع، وهي التي تناولت ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي ضِمْنًا. وهي متنوعة بين مراجع فقهية وتاريخية وأدبية...وغيرها.

8/ سلك العلماء الذاكرون لهذه الظاهرة مناهج شتى، فمن حيث عرض الظاهرة مثلا: منهم من اكتفى بذكر حادثة الإتلاف، ومنهم من قرنها بسببها، ومنهم من أضاف تعليقا فيه إنكار الحادثة، أو تأييدها ...أو غير ذلك.

ب/- أهم التوصيات:

وصيتي للباحثين أن يتوجهوا إلى طَرْقِ موضوع ظاهرة إتلاف الكتب في التاريخ الإسلامي إذ لا يزال خِصبا لمن يريد أن يستثمر في دراسته، سواء من الناحية التاريخية، أو الشرعية، أو الاجتماعية، أو السياسية، أو النفسية، أو الحضارية، أو الببليوغرافية...أو غيرِها.

12. التعليقات:

التعليق رقم (1): فتيممت: قصدت، التَّنُور: ما ينضج فيه الخبز، أي: الفرن. فسجرتها: أوقدت الصحيفة وأشعلتها. (ابن حجر العسقلاني، 1379، ج8، ص121).

التعليق رقم (2): قوله: ... اسْتَمَرَّتْ مَرِيرَتُهُ: استحكم أمره. (ابن الأثير، 1979، ج4، ص318).

التعليق رقم (3): وقد انفرد بذكر هذه الطريقة شعبان عبد العزيز خليفة صاحب كتاب: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى. الشرق المسلم والشرق والأقصى. (شعبان عبد العزيز خليفة، 2001، ص256). وقد رأيت صورة أرسلها بعض طلبة العلم فيها هذه الفعلة الشنعاء، حيث قام بعضهم في خزانة من خزائن المخطوطات في جنوب الجزائر المحروسة بتغليف مخطوط بمخطوطة الأوسط لابن المنذر، وهذا الكتاب -وإن طبع محققا كطبعة دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث- فإنه نادر الوجود ولا يزال الجزء الثاني منه مفقودا، وفي توصيف مخطوط الأوسط [195/1-200] ذكرٌ لتسع نسخ لا يوجد منها نسخة الجزائر وعليه تكون الجريمة كبيرة إذا طالت كتاب الأوسط عموما، وتكون أكبر إذا طالت الجزء الثاني منه الذي يعتبر في حكم المفقود.

13. قائمة المصادر والمراجع:

1) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت: 170هـ) العين. ط/بدون، سنة/بدون. المحقق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي. الناشر: دار ومكتبة الهلال- بيروت.

2) الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور (ت: 370هـ). تهذيب اللغة. ط/1، 2001. المحقق: محمد عوض مرعب. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

3) ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: 711هـ). لسان العرب. ط/3. 1414.الناشر: دار صادر – بيروت.

4) ابن فارس: أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: 395هـ). معجم مقاييس اللغة. سنة النشر: 1399هـ - 1979م. المحقق: عبد السلام محمد هارون. الناشر: دار الفكر- بيروت.

5) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الحموي أبو العباس (ت: نحو 770هـ). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. ط/بدون، سنة/بدون. الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

6) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب أبو طاهر(ت: 817هـ). القاموس المحيط. ط/8، 1426هـ - 2005م. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت.
7) البركتي، محمد عميم الإحسان المجددي. التعريفات الفقهية. ط/1، 1424هـ - 2003م. الناش: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان 1407هـ - 1986م).
8) اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان أبو محمد (ت: 768هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. ط/1، 1417 هـ - 1997 م. وضع حواشيه: خليل المنصور. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
9) الحزيمي، ناصر. حرق الكتب في التراث،. ط/1. 2002. منشورات دار الجمل. دار نشر أسسها العراقي خالد المعالي عام 1983 في مدينة كولونيا، ألمانيا. تنشر كتب الأدب العربي الحديث.
10) سعيد، خالد. تاريخ إتلاف الكتب والمكتبات. ط/1. 1439هـ-2018م. دار أثر للنشر والتوزيع -الدمام- المملكة العربية السعودية.
11) الشنو، خالد بن عبد الرحمن بن عيسى. مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي. ط/1، 1431هـ/2010م. دار البشائر الإسلامية.
12) الجبوري، يحي وهيب. الكتاب في الحضارة الإسلامية. ط/1، 1998م. دار الغرب الإسلامي - بيروت.
13) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت: 1041هـ). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ط/1 للجزء الثاني، 1997. المحقق: إحسان عباس. الناشر: دار صادر- بيروت.
14) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت:626). معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. ط/1، 1414هـ - 1993م. المحقق: إحسان عباس. الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت.
15) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي (ت: 842هـ). فتح الباري شرح صحيح البخاري. ط/بدون، سنة: 1379هـ. الناشر: دار المعرفة - بيروت، رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
16) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(ت: 256هـ). الجامع الصحيح. ط/3، 1407هـ-1987م.تحقيق: مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير واليمامة - بيروت.
17) النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري (ت: 261هـ)، المسند الصحيح. ط/1، 1412هـ-1991م. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية، ودار الكتب العلمية - بيروت.
18) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين(ت: 751هـ). زاد المعاد

في هدي خير العباد. ط/27، 1415هـ-1995م. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط. الناشر: مؤسسة الرسالة -بيروت، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت.

19) الدليمي، أكرم عبد خليفة حمد. جمع القرآن (دراسة تحليلية لمروياته). ط/1، 1427 هـ - 2006 م. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

20) الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر. شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي. ط/1، 1431هـ. اعتنى بها: بدر بن ناصر بن صالح الجبر. الناشر: دار ابن الجوزي- المملكة العربية السعودية.

21) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت: 430هـ). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. ط/بدون، سنة: 1394هـ - 1974م. الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر.

22) الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني ابن الأثير (المتوفى: 606هـ). النهاية في غريب الحديث والأثر. ط/بدون، 1399هـ - 1979م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي. الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.

23) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (ت: 230هـ. الطبقات الكبرى. ط/1، 1968م. المحقق: إحسان عباس. الناشر: دار صادر - بيروت.

24) خليفة، شعبان عبد العزيز. الكتب والمكتبات في العصور الوسطى والشرق المسلم والشرق والأقصى. ط/2، 1421هـ-2001م. الناشر: الدار المصرية اللبنانية.

25) بكري، الطاهر أحمد. سوء الحفظ وأثره في قبول الحديث. 2008/1429. رسالة ماجستير. كلية الشريعة، جامعة دمشق.

26) نوري، نوفل محمد. إتلاف الكتب في الحضارة العربية الإسلامية(دراسة تاريخية في أسبابها في العصر العباسي[132-656هـ/749-1258م]).

27) دياب، حامد الشافعي. الكتب والمكتبات في الأندلس. ط/1، 1988م. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة.

28) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت: 646هـ). إنباه الرواة على أنباه النحاة. ط/1. 1406هـ/1986م. المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

29) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ). العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون. ط/2، 1408 هـ - 1988 م. المحقق: خليل شحادة. الناشر: دار الفكر- بيروت.

30) السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن

محمد (ت:902هـ). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ط/بدون، سنة: بدون. الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت.

31) الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان المالكي (ت: 333هـ). المجالسة وجواهر العلم. ط/بدون، 1419هـ. المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين–أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت – لبنان).

32) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت: 748هـ). تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام. ط/1، 2003. المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف. الناشر: دار الغرب الإسلامي.

33) الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير (ت:1182هـ). مزالق الأصوليين وبيان القدر المحتاج إليه من علم الأصول. ط/2. 2013/1434. تحقيق وتعليق: محمد صباح المنصور. الناشر: مكتبة أهل الأثر– الكويت.

34) ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس (ت:668هـ). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ط/بدون، سنة: بدون. المحقق: الدكتور نزار رضا. الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت.

35) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي (ت: 681هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ط/بدون، سنة: بدون.. المحقق: إحسان عباس. الناشر: دار صادر – بيروت.

36) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت: 463هـ). تاريخ بغداد. ط/1. 2002/1422. المحقق: بشار عواد معروف. الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت.

37) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت: 748هـ). سير أعلام النبلاء. ط/3، 1985/1405. المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط. الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت.

38) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ). ط/1، 1408هـ– 1988م. المحقق: علي شيري. الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

39) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت:597هـ) تلبيس إبليس. ط/1، 1421هـ–2001م. الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر– بيروت.

40) مخدوم، ياسين بن كرامة الله. أحكام الكتب في الفقه الإسلامي. ط/1، 1431هـ، دار كنوز إشبيليا. المملكة العربية السعودية.